الفصل الرابع
معركة الحب والزواج والأسرة

تمهيد واجب

قد تكون المواقف والأحداث فى هذا الفصل ـ كما حدثت بتفاصيلها ـ نورًا وضياءً على الطريق لمن يسلكون نفس الدرب، وأيضًا لمن تكون لهم آراؤهم المعارضة فى نفس الموضوع الذى يكون فيه طرف مثلى وهم كثر فى مصر وغيرها، وعلها تكون عبرة لمن ارتضى أن يكون حجرًا فى مجرى نهر الأيام يعيقه أن يروى الظمأى بماء الحياة. كما أرجو أن تكون هذه الأحداث قوةً وسندًا لمن يطالبون بحق الحياة دون المساس بحقوق الناس ومشاعرهم ودون أن يسعى فى قطع الأرحام أو زلزلة القيم. إن هذا الشخص فى مثل هذه المواقف يكون بين فكى رحى، فهو مطالب بالمحافظة على القيم وفى نفس الوقت يطالب بحقه فى الحياة، فلا ضرر عليه ولا ضرار يسببه لغيره.

ولأن العقبة كانت كؤودًا جدًّا، فقد تسلحت برحابة الصدر ولين الجانب وسعة القلب الذى يسع الدنيا كلها، حتى أصبحت سلاسل

القفل وكأنها حرير ينسل الرضا والقبول بعد سنوات من الصبر الجميل الذى يتشح بالتعقل، حتى دانت ثمار القلوب وهدأت ثائرة النفوس وشفيت العقول من آثار خبث الإنسان لأخيه الإنسان، وإذا بمن أقام جدارًا للخصام واللدد يهدمه ويقيم مع حفيده ابن ابنته وابنى الدكتور «عبد الرحمن» جدار المحبة الدائمة والعرفان لمن خلق الإنسان.

فى نفس الشارع

كان الشارع الذى عشت فيه سنوات عمرى الأولى وفترات الصبا وبداية الشباب يمثل المجتمع المصرى فى نقائه وتعاطفه وتعاونه، وكان يمثل طبقات من هذا الشعب الكادح المسكين الذى يبحث كل منهم عن لقمة عيشه الحلال، وكنت لهؤلاء جميعًا ابنهم الذى كانوا يحبونه ويعتبرونه واحدًا من أسرتهم.. ففى هذا الشارع كان صديقى الترزى الذى كان يحمل عنى عناء البحث عن ملابس جاهزة وكان يقوم بخياطة كل ما يلزمنى من ملابس مناسبة، حيث كان المتعارف عليه بالنسبة لمثلى أن يتدلى الكم من اليد القصيرة، ولكنه صنع لى الكم المناسب الذى سار عليه بعد ذلك كل من حاك لى ملبسًا أرتديه، وكان يرفض أن يأخذ مقابلًا عن عمله لأنه يفعل ذلك لأخيه. وأيضًا أخوه الذى كان يحملنى فى قلبه حبًا ولايستطيع أحد أن يقترب منى سواء فى لعب الكرة أو فى أى مكان أوجد معه فيه. والسيدات فى هذا الشارع كانت كل واحدة منهن تعاملنى كما تعامل أولادها تمامًا. وكل هؤلاء كنت أبادلهن حبًا بحب وكنت شديد الأدب معهن طوال حياتى التى عشتها معهم بعد ذلك، لدرجة أن واحدة منهن كانت جارتنا اللصيقة طلبت وهى على

فراش الموت رؤيتى، فأخبرنى ولدها الطيب فطرت إليها أُقبل رأسها فأفاقت وأنا بجوارها فحمدت الله، وبعد ساعات قليلة أسلمت الروح إلى خالقها، رحمها الله.

وكان من سكان هذا الشارع زوجتى التى كتب الله فى القدر أنها رفيقة العمر وصاحبتى فى الحياة، تعيش مع أسرتها التى تتكون من والدها الذى كان يعمل موظفًا فى الإدارة الصحية فى مدينة قويسنا، وأمها ست البيت وجدتها لأمها. وكان بيتهم كمعظم بيوت القرية يشقى فيه الأب لكى يضمن لأفراد أسرته حد الكفاف والعيشة الكريمة، خاصة وأنها كانت أكبر أولاده وبناته. منهم بنتان غيرها وثلاثة أولاد ذكور. وكانت علاقة الأسرتين طيبة كبقية البيوت التى تجاورنا، خاصة وأن أمى ثم خالتى بعدها كانت معاملاتها طيبة مع الجميع، وهذه عادة أهل الريف، ولم تنشأ بيننا علاقة إلا بعد ما دخلت المرحلة الجامعية.

كنت وهى فى فترة الثانوية العامة أدرس لها ولزميلاتها دروس النحو والبلاغة، فوقعت عينى على صفات أبحث عنها فى هذه البنت، ولكنى ظللت فترة مترددًا لأكثر من سبب؛ أولًا أن قضية الزواج كانت مما يمثل لى قلقًا عندما أطرحه على نفسى، خاصة أننى كنت قد وصلت إلى درجة من الوعى والنضج الفكرى يجعلنى أواجه نفسى بالحقائق مجردة بعيدًا عن التمنى أو محاولة التسلق لجبال وهم لا أثر له فى واقع الناس، جبال يمكن أن أسقط منها على واقع لا يرحم.

وكانت لى فى بداية عملى فى الإذاعة بعض العلاقات التى كانت يمكن أن تثمر عن ارتباط عاطفى فى هذه الفترة المبكرة، وأعترف أننى قد شغلت فترة من الوقت بعلاقة من هذه العلاقات كان فيها الطرف الآخر

يحركه عقل راشد وقلب يتحسس الخطى وعينان تفضح ما فى القلب من مشاعر، ولكنى لمحت فيها التردد، وبقدر ما كانت تقترب أحيانًا كانت تبعدها حسابات أدركها تمامًا، وكنت ألحظها فى نقاشنا حول مسئوليات الرجل والمرأة والطموح الذى تتمناه كل امرأة وإثبات ذاتها، لكن المحير فى الأمر أنها كانت بعد هذا الكلام ترسل عينيها برسائل يعرفها كل من عرف لغة العيون عندما تشخص للمنازلة فى ساحة الوجد الجميل وأيضًا عندما تتحدث عنى وعن قدرتى. ولكن لما راجعت حساباتى وطرحت الأمر للمناقشة بينى وبين نفسى وجدته لا يصلح لا لى ولا لها، وأخذت رأى صديق واحد كان يتابع هذه العلاقة فشاركنى الرأى، وعند وقت معين أصدرت قرارًا بالعودة من ساحة الوجد والحب إلى ساحة الصداقة، وأرسلت رسائلى التى التقطها عقلها الفطن الذكى فظللنا أصدقاء إلى أن رحلت فى دنيا الله.

وكان دائمًا ما يدور بينى وبين إخوة وأصدقاء أكبر منى سنًا حوارات حول هذا الموضوع. كان رأيهم أن الأمر طبيعى وأنك قد أنجزت نجاحًا فى حياتك وأن هذا جواز المرور لهذه المرحلة المهمة فى حياة أى إنسان، وأنك تتمناك أية بنت تتقدم إليها، وكنت أعتبر هذا من باب المجاملات الرقيقة. وكنت أخالف من يقول هذا الكلام حتى ولو لم أصرح، لأنى أعرف نفسى وأعرف أن من تقبل الزواج لا تتزوج قصص النجاح ولا تتزوج السمعة، وإنما ستعيش مع هذا الشخص الذى يجب أن تعلم أنه مختلف عن كثير من الناس وأنها قد تتحمل عبئًا أكثر من أى زوجة أخرى بحسب الصورة القائمة.

لذلك كان همى فى البداية أن أبحث عن سمات أساسية لابد من

وجودها لكى أفكر فى الموضوع. أن تكون شخصية مقبولة عندى أحس عندما أراها بشىء يشدنى إليها، وأن تكون متدينة، وأن تكون من أسرة طيبة، وأن تعلم قبل أن تأخذ القرار بكل ما يتعلق بحياتنا معًا بحيث تكون قادرة على أن تأخذ قرارها، وأن تعلم أن عليها أعباءً تزيد على أى زوجة أخرى. لذلك فقد ترددت كثيرًا فى أن أفتح معها الموضوع، وكيف أكلمها فيه لأعرف رأيها وبعد أن تكون على دراية تامة بما هى مُقدمة عليه، دون أن تشغلها شهرتى التى كانت فى كل مكان وقتها، ودون ضغوط من أحد عليها للقبول أو الرفض. فظللت مترددًا فترة طويلة من الوقت. ولم يكن أحد من أسرتى يعلم شيئًا عن الموضوع وإن كنت أعلم أن هذه القضية تشغل بال والدى كثيرًا، فهذا البناء الإنسانى الذى صنعه على عينه يريد أن يطمئن عليه فى بيت يواصل فيه مسيرة حياته القادمة بعد تخطى كل العقبات الكبيرة التى مرت به فى حياته.

هدانى عقلى أن أقدم لهذا الموضوع، خاصة أننى يمكن بسهولة أن أكلمها وهى تمر فى أى وقت بلا حرج. فقدمت للموضوع بأن رددت عليها السلام مرة ثم ناديتها وسألتها عن أخبار الدراسة ـ وكانت فى أحد المعاهد ـ ثم قلت لها: إنى أريد أن أتكلم معك فى أمر مهم، فسألت ماهو؟ وألحت أن أقول لها، فاعتذرت وقلت لها: قريبًا، وظللت عدة أيام أحرص على ألا ترانى. وفى اليوم الذى قررت أن أفتح الموضوع معها جلست عند دائرة من المقاعد الحجرية كانت تلف باب بيتنا الخلفى، وجاءت ووقفت كعهدها وسألتنى ماذا أريد، فحاولت أن أكون متماسكًا وكأننى أربط على نفسى رباط السكينة وقلت: أنا أريد أن نتزوج وأريد أن أعرف رأيك حتى نتقدم إلى الأسرة وأنت تعرفيننى جيدًا تعرفين حياتى

وتعرفين كيف أعيشها، سأحتاج زوجة ستقدم أكثر من الذى تقدمه أية زوجة أخرى، لكن فى نفس الوقت سنقيم بيتًا معًا نحاول أن نرضى فيه ربنا سبحانه وتعالى، إمكاناتى قليلة لكن المستقبل أمامنا، وإن شاء الله تكون حياتنا جميلة وينعم الله علينا فيها. فرأيت وجهها وقد أضاءته فرحة المفاجأة ووضعت وجهها فى الأرض، هنا قلت لها: إن مادعانى أن أبدأ بالكلام معك هو حرصى على أن أبين لك أن حياتك معى ستحتاج جهدًا مضاعفًا، وبقدر هذا الجهد سأكون ممتنًا شاكرًا ساعيًا لأن أرد لك هذا الجهد ودًا وحبًا واحترامًا، وأريد أن تفكرى كثيرًا وأن تضعى ماقلته لك هذا نصب عينيك وأن تأخذى رأى من تثقين فيه.

ذهبت، وانتظرتُ حتى ترجع لى بالرأى الذى انتهت إليه. وجاءت، لتعلن موافقتها الصريحة، وقالت إنها قد فكرت وأنها أخذت القرار، وأنها قد أبلغت أمها وجدتها لأمها وأنهما قد وافقا وفى شدة الفرح، لكنها أبدت بعض التخوف الذى لم أشأ أن أسأل عنه وقتها. كان لزامًا علىَّ أن أفتح الموضوع، فاخترت خالتى التى حلت محل أمى فى البيت ففاتحتها، وبمجرد أن كشفت عن الاسم حتى كادت تطير فرحًا، لأن القناة كانت محل تقدير من الشارع كله وكانت هادئة الطبع تبدأ كل من تقابله بالسلام منذ صغرها، وليست جلابة لمشكلة مع أحد أبدًا. حجابها فوق رأسها منذ الصغر. وقالت خالتى كنت أريد أن أعرضها عليك لكن الحمد لله، بقى أن يعرف أبوك، قلت سأفتح معه الموضوع قريبًا، وأنا أعلم كيف أفتح معه موضوعًا مصيريًا كهذا، خاصة أنه أبصر الناس بنفسى وروحى وإحساسى ويقرؤنى قراءة دقيقة ويعرف كيف أفكر.

لا أناقش اختيارك ولكن..

كنت أعرف أن هذا الموضوع يمثل اهتمامًا كبيرًا لوالدى ـ رحمه الله ـ، فقد كان يرسل رسائل تصلنى، يمدح فيها من ستكون زوجة لى، ويأخذ فى تعداد أوليات ابنه ويفتخر بها أمامى وأمام الناس، وكان يفتح هذا الموضوع على سبيل أنه مما يقتضيه الحال مع كل إنسان فى حياته. لذا لما فاتحته ـ وأذكر هذا اليوم ـ أخبرته أنى أريد أن أحدثه فى موضوع مهم جدًّا، وكان قد وصلته الرسالة من خالتى إذًا فلديه علم.

سرنا سويًا إلى قطعة أرض زراعية يملكها أبى خارج زمام قريتنا بموازاة الطريق الزراعى الذى يمر على حدود القرية، وكان فى حديثه معى يتبسط حتى كأنه يكلم نفسه فقال: ماهو الموضوع الذى تريد أن تكلمنى فيه؟ فقدمت تقدمة عن حاجتى الآن للزواج والاستقرار فقد أكرمنى الله بهذه الوظيفة المحترمة وهاأنذا أصبحت مذيعًا فى إذاعة القرآن الكريم وحققت ماأتمناه وأريد الزواج لأنه يمثل حالة من الاستقرار ثم إنه بمثابة اطمئنان على النفس، خصوصًا أن من وقع عليها الاختيار فيها المواصفات التى أريدها، وقد أخبرتها بكل شىء وأننى سأحتاج إليها فى بعض الأمور التى قد يكون فيها شىء من التعب، وبينت لها فى وضوح أنها سوف تبذل جهدًا أكثر من أى زوجة أخرى.

كان أبى يستمع بإنصات ويهز رأسه وكأنه يبدى موافقة على مايسمع، وعندما انتهيت أضفت: والأمر لك وما رأيك.. هنا نظر والدى إلىَّ وقد علا وجهه الرضا وقال: أنت بالذات من بين إخوتك لاأناقش اختياره وخاصة فى هذا الموضوع، لأننى أعرف كيف تفكر وأعرف أن طريقة تفكيرك ستهديك إلى السلامة فى الرأى. فالبنت لاغبار عليها بل هى بشهادة كل من عرفها أو تعامل معها متفق على أخلاقها ودينها وهذا

أهم مافى هذا الموضوع، ولكن لاأخفى عليك أننى لست على ثقة من تفكير والدها لأننى لم أعامله عن قرب، ويُعرف عنه أنه عصبى، ومثل هذا الرجل يمكن التأثير عليه بسهولة خصوصًا أنه يعمل فى مؤسسة حكومية تثار فيها هذه المسائل الشخصية التى تجعل الشخص ريشة فى مهب ريح أصحاب الآراء غير الحكيمة. وقتها كان ردى على والدى ـ رحمه الله ـ أنك قد ظلمت الرجل، ولكن ماقاله والدى حدث بالحرف الواحد بل بالطريقة التى قالها هذا الرجل المجرب، والأيام حبلى بما سيكون عليه وما صدر منه.

قابله والدى فى المسجد وقال له إنه سيزوره اليوم، فرحب والدها بعد أن أخفى شعورًا بالعجب من هذه الزيارة، وذهب أبى وحده وكلمه فى الأمر. أريد يد ابنتك فاطمة لابنى رضا، وأنت تعلم رضا، فرد الرجل مباشرة ـ كما حكى لى أبى ـ ابنك لايُرفض هذا شرف للبلد عندنا وأنا أحبه، وقد كان الرجل كبقية الشارع بل القرية كلها علاقتى به طيبة جدًّا. فعلت صوت زغرودة سمعتها خالتى فى بيتنا، فأطلقت زغرودة، واشترط والدها أن تكمل ابنته تعليمها فى المعهد الذى دخلته بعد الثانوية العامة وبقى على انتهائها منه سنة، فوافق الجميع وأصبح رضا خطيبًا للآنسة فاطمة.

وعندما ذهبت فى زيارة بعد ذلك كان استقبالًا لطيفًا من الجميع، إلا أننى لاحظت من والدها بعض الفتور فلم أعر ذلك اهتمامًا، وفى الزيارات الأخرى لاحظت أن هذا الفتور دائرته تتسع ولاحظت أن الوجوه فى البيت قد علاها الغضب من شىء ما.. اتضح لى أنه ليس بسببى لأن المعاملة معى طبيعية من الجميع، سوى أبيها الذى رسم على جبهته خطوط تعبر عن الضيق ووضع على وجهه غلالة من الغضب تبدو فى ثنايا وجهه، فرجعت

إلى البيت أشكو لخالتى التى كانت همزة الصلة بينى وبينهم، فقالت إن الرجل نقض الاتفاق وكل من فى البيت يعارضونه أولهم ابنته، وهى تحاول إقناعه بجميع الطرق. فقلت ينبغى أن أعرف الحقيقة من صاحبة الأمر، وكنت أقف على أول بيتنا أمام الجميع معها عندما تمر، وكان هذا يبدو شيئًا طبيعيًا، فحكت لى أنه كان موافقًا وسعيدًا فى أول الأمر، وبعد عدة أيام انقلب تمامًا وأصبح معارضًا لهذا الموضوع، وأخذ يهدد أنه سيخلع يده من هذا الموضوع، فباغتته حماته: ألم تعط وعدًا للرجل؟ ولماذا قلت له هذا الكلام؟ وماذا تغير فى هذه الأيام القليلة؟ وأصبح البيت كأنه جمرة نار بين فريقين، فريق يمثله الرجل وحده وفريق آخر تمثله خطيبتى وأمها وجدتها، أما أخواها فلا رأى لهما.

وكانت تأتينا الأخبار التى كانت تحصل عليها خالتى التى بذلت جهدًا لايطيقه بشر، فكانت تقابل الرجل وتبتسم فى وجهه ظنًا منها أنه قد يعدل عن رأيه، وكنت أغضب غضبًا شديدًا وأطلب منها راجيًا ألا تفعل ذلك، وكانت تقابل خطيبتى وتحاول أن تشد من أزرها، فكانت تطلب من خالتى أن يكون عندى شىء من الصبر، وأنها لن تتخلى عن هذا الموضوع، وأنها قد بذلت جهدًا مضنيًا معه حتى تطمئنه وردت على كل تساؤلاته. فقد قالت له إننى قد سألت قبل موافقتى أنه لايحتاج فى البيت إلا أشياء قليلة تفعلها أى زوجة، ثم هو لا أحد مثله خلقًا ودينًا وهو يعيش معنا لم نسمع عنه مشكلة أبدًا، ومع ذلك وبعد هذا الكلام أهانها ولم يستمع إليها ولا إلى والدتها وجدتها اللتين كانتا متعاطفتين جدًّا معها.

وبعد عدة أيام عرفنا السبب فى تغير الرجل بهذا الشكل المفاجئ والذى أعلن فيه عن رفضه القاطع. جاء إلى أبى هذا الرجل الذى يمشى على

الأرض هونًا، هذا الرجل الراضى الطيب الحاج «لطفى محروس» الذى كان يعمل فى الإدارة الصحية مع هذا الذى نكص على عقبيه الرافض الموصد بابه عنا، وقال الرجل إن السبب فى تحول والد الفتاة هو طبيب الصحة الذى يعمل معه وبعض الموظفات، هؤلاء لايعرفون رضا وحكموا عليه دون أن يعلموا شيئًا عنه، وحاولت أنا ومن يعمل معى من القرية طمأنته فلم نستطع، بل قال له طبيب الصحة وبعض السيدات اللاتى يعملن معه: ابنتك كيف تزوجها لهذا..... وحاول الحاج لطفى أن يقول لهم مَن هذا الشخص الذى تتكلمون عنه؟ وختم الرجل كلامه بأنه يرى أن يهيء لقاءً مع طبيب الصحة فى مكتبه يكون رضا موجودًا فيه، خاصة وأن والدها قد تعب مع الناس الذين يلومونه على موقفه خاصة، الذين يعرفون رضا جيدًا.

فى هذه الأثناء، وخلال نقاش حاد بين الرجل وابنته وزوجته خرج منه قسم طلاق فخاف على نفسه، وذهب مع أحد أصدقائه إلى شيخ مدينة قويسنا ومفتيها ومرجعها فضيلة الشيخ «حفظى»، هذا الرجل النورانى الذى فقد البصر فقامت البصيرة موئلًا للفهم والفطنة والذكاء ومخزنًا للفضيلة والأدب، وكان الشيخ الجليل يعرفنى جيدًا حيث كان والد أخى وزميل الدراسة وصديقى «أيمن حفظى»، ذهب إليه الرجل لكى يستفتيه، وكان يجلس مع الشيخ حفظى وقتها مفتش فى المعاهد الأزهرية الذى كان يعرفنى جيدًا. ذهب والد خطيبتى لكى يسأل الشيخ عن يمينه الذى أقسم به على زوجته هل يقع أم لا؟ فرد الشيخ وما سبب هذا اليمين؟ فحكى له، وأثناء الحكاية سأله الشيخ عن بلده، فقال كفر الشيخ إبراهيم فصرخ فيه الشيخ الجليل: أنت تتكلم عن ابنى رضا المذيع فى إذاعة القرآن الكريم،

وأخذ يعطى الرجل درسًا فى كيفية النظر إلى الإنسان خصوصًا أن الشيخ نفسه كفيف وجاءه يسأله وغضب عليه الشيخ حفظى بعد أن أجابه. ثم تكلم الرجل الذى كان بجوار الشيخ حفظى وقال: «اسمع أنا عندى بنت لم تتزوج، والله العظيم لو وافق رضا على الزواج منها لزوجته وأعطيه شقة خصصتها لكل بنت من بناتى، وختم الرجل كلامه بسؤال: «بنتك رأيها إيه؟» فسكت والد الفتاة ولم يرد، فأردف الرجل حرام عليك.

وقصة أخرى لسيدة وقور طيبة كانت تعتبرنى ابنًا من أبنائها، وكان زوجها معلمًا فاضلًا فى المدرسة لكنى لم أحظ بشرف التعليم على يديه، وكان شديد الطيبة، أخذت زوجها وذهبت إلى طبيب الصحة التى علمت دوره فى الموضوع وقالت له كلامًا أعلقه عقدًا من الفضل على صدرى وتاجًا من الوفاء فوق رأسى. حيث قالت له بلغة عامية صادقة: «رضا ده مش ابن أبوه وأمه بس رضا ابنى وابن كل واحد فى كفر الشيخ إبراهيم، أنت متعرفش رضا عايش أزاى وبيعمل إيه، أنت متعرفش رضا بيشتغل أيه، رضا ده كل الناس بتسمعه فى الدنيا كلها».. قالت هذا الكلام وقد أحمر وجهها غضبًا وتركت المكتب وتركته وكأنها تعلن له عن رفضها لما سمعته من دوره الخبيث.. وأصبح هذا الموضوع حديث القرية وحديث زملائى فى العمل الذين عرضوا بل عقدوا العزم على اختيار مجموعة منهم لكى يقابلوا الرجل، وحرصًا عليهم وحتى لاتتسع الهوة شكرتهم واكتفيت منهم بالدعاء بأن ييسر الله هذا الأمر.

عملية زواج متعسرة

لايستطيع أحد أن ينكر على رجل فى مكان الأب أن يخاف على حياة

أو مستقبل ابنته، التى يرى أنها قد تتعب فى حياتها مع هذا الشخص الذى يراه قد لا يكون مناسبًا لها وقد يحتاج إلى أشياء تحيل حياتها إلى سلسلة من الأعباء الثقيلة. لكن الأمر يختلف عندما تكون الفتاة راشدة وعاقلة وتستطيع الاختيار بعد أن وَضُحَت لها الصورة كاملة بجميع أبعادها، وبعدما وقعت كل هذه الأحداث أمامها، ومع ذلك تعقد العزم على أن ترتبط بهذا الشخص بالرباط المقدس، بل وتحاول أن تزرع الاطمئنان فى قلب والدها الذى أغلق عقله تمامًا على الرغم من أنه قد وافق فورًا عند أول لقاء وكلام فى الموضوع مع والدى.

ولأننا فى شارع واحد فقد كانت الأخبار سهلة التناول والتداول، وأصبح البيت كله ضد الرجل يحاول إقناعه... وما يستثير العجب أن الرجل لم يفك ارتباطه مع الوالد لأن طرفنا مازال يحاول بشتى الطرق أن يرضيه ويحاول أن يحيطه بهالة من السكينة يُبطل بها مايسمعه من طبيب الصحة الذى أعمل فيه سمه. وكانت فترة عصيبة حقًا، حيث كنت أنا وأبى نعانى جنوح الرجل الذى بدأنا نسمع كلامًا يتطاير منه لا يليق.

وجاء عرض الحاج «لطفى محروس» لكى نعرض قضيتنا أمام المحرك الخبيث من تحت المنضدة التى يجلس عليها الرجل ليملى عليه، فذهبت إلى مكتب الطبيب مع والدى وجلس معنا والد خطيبتى، وجلس أمامنا هذا الطبيب ممتلئ الجسم الذى لم أرتح إلى قسمات وجهه ولا إلى بدايات حديثه الملتوية. وقد أدرك أبى خصال الرجل ففرش أرض الجلسة بالرياحين الجميلة عندما رسم صورة للمجتمع الذى نشأنا فيه وتربينا على قيمه، وأن هذا الشارع أسرة واحدة وأن كل من فى هذا الشارع إخوة وأن جميع الأولاد والبنات فيه إخوة وأخوات، وأن هذا الرجل ـ وأشار

إلى والد خطيبتى ـ هو أخ أصغر لى وهو يعلم أننى أخ أكبر لكل من يسكن هذا الشارع، فتحركت رأس الرجل رغمًا عنه لأنها الحقيقة ثم ذكر بكلام مغلف بالمودة والرفق أن ابنة هذا الرجل ـ وأشار إليه ـ هى من أكثر البنات أدبًا ودينًا وخلقًا والكل يعرف ذلك، وأن ابنى هذا ـ وأشار إلىَّ ـ لايقل عنها لاأدبًا ولادينًا ولاخلقًا ويعرف كل الناس هذه الحقيقة، وقد اختار كل منهما الآخر، وعرضت هذا الموضوع على صاحب الشأن فرحب ترحيبًا شديدًا وقال بوضوح إن ابنك هذا لايُرفض وهو إلى الآن من بعد هذه الموافقة الصريحة لم يرفض، ولكن لأننا فى شارع واحد وجدنا نارًا متقدة يصيبنا لهيبها صباح مساء، وأن ما دعانى إلى أن آتى إلى هذا المكان أننى أعلم صلتك القوية به وتأثيرك عليه، وأنا حريص وابنى على إتمام هذا الموضوع برضاه وبمباركته، هذا ابنى مذيع بإذاعة القرآن الكريم وهو قادر على أن يتكلم عن نفسه.

بدأت كلامى من حيث انتهى والدى: أنا أعمل كذا وقادر على بناء أسرة بفضل الله، اخترت من تشاركنى حياتى حسب ماأملاه علىَّ دينى وعقلى وحسب ظروفى التى تراها، والتى أحتاج فيها من يساعدنى نعم، ولكن دون أن أرهق من حولى فأنا أستطيع القيام بمعظم مايقوم به الشخص العادى، إضافة إلى أننا وكل من حولنا يعلم باختيار كل منا للآخر للاتفاق فى كثير من صفاتنا، والكل يعلم ذلك، وفى النهاية الأمر لها ولوالدها لكننى سأنتظر وسأحاول فعل كل شىء لكى يتم زواجى منها إذا أراد الله.. رأيت الحاج «لطفى محروس» يشخص بصره على وجهى وأنا أتكلم، ويتجول فى وجهَىّ الدكتور ووالد خطيبتى وكأنه يريد أن يرى ردة الفعل على وجهيهما بعد هذا الكلام الذى يرد على كل

الأسئلة ويشفى كل علل النفس التى سدت نوافذ البرهان، وآثرت أن تعيش وحدها وليذهب كل من عداها إلى الجحيم. ثم تكلم الطبيب بكلام ملتو يحاول أن يحيل الموضوع إلى تجن منا، فقاطعه والدى وقال ـ فى كلام صريح ـ نحن متمسكون بالموضوع لكن لو صدر من هذا الرجل رفض صريح هنا يُغلق الموضوع تمامًا، فلم يتكلم الرجل.

وبعد أن خرجنا من عند صاحبنا ذى الجسم الممتلئ أيقنت ومعى أبى أنه حائط يستند إليه الرجل، لكن ما توقعه الوالد قد حدث، أنه هو نفسه الذى دفع سيارة القبول أن تتحرك بل تسرع فى سبيل إتمام هذا الموضوع الذى أصبح حديث المجالس.. وأذكر أن الذى تحمل عبئًا ثقيلًا فى هذا الموقف هو الأخ الكبير الحاج «أحمد صفى الدين» صاحب الأيادى البيضاء على كثير مما حدث فى القرية من إنجازات والشريك الأول فى كل مواقع الخير ومواطن الصلح فى قريتنا الصغير. هذا الرجل هو الذى تولى قيادة العملية القيصرية لهذا الزواج، فقد ذهب بنفسه إلى والد خطيبتى ويسر له كل شىء، ولأنه كان يعلم عنى كل دقائق حياتى فقد طمأنه وأخذ يرسم له صورة لما ستكون عليه حياة ابنته التى يتمنى لها السعادة فى حياتها واتفق معه على موعد عقد القران، وعمت الفرحة البيتين وأصبح الجميع فى انتظار ذلك اليوم.

وفى غمرة هذه الفرحة نكص الرجل على عقبيه! وإذا بالحاج «حافظ الفلاح» عميد القرية الطيب يدعو والدى لجلسة لهذا الموضوع فى بيته. جلسنا فى هذه الليلة فى الغرفة التى تطل على الميدان الذى ينظر فيه المسجد بقبته إلينا وكأنه شاهد على أحداث هذه الجلسة. جلس صاحب البيت وعلى يمينه وشماله يجلس علية القوم الكبار الذين دعاهم الرجل،

وجميعهم بينى وبينهم علاقة ود أبوية ووشيجة من أدب واحترام وتوقير لكل واحد منهم يعرفها جيدًا.. وبدأ والد خطيبتى بسؤال يشعل فتيل العراك فى نفسى ويدفعنى لرد قد لا أستطيع أن أربط معه على نفسى رباط الجأش، حيث قال ناظرًا إلى كل الجالسين أمامه: «حد فيكم يرضى يجوزه بنته؟»، فتجهزت للرد فنظر إلىَّ والدى بنظرات حادة حاسمة هددنى فيها بالطرد من الغرفة فأمسكت زمام نفسى وكأنى أمسك برباط فرس يريد دفع الصائلين عليه.

ارتفعت أصوات كل الحاضرين، حتى قال أحدهم بمعنى رائع: «مشكلتك أن رضا قد وقع اختيار ابنتك عليه وهو راضى بهذا الاختيار، فلماذا تمنع أنت؟ ورضا لو ذهب لأى أب مننا فى هذه القرية أو فى أى مكان سيبين لابنته ما بينته أنت وهذا ما يفعله أى أب، وبَيّنَ رضا ووالده كل الأمور التى يمكن أن تكون خافية عليها، لذلك فالأمر لا ينتهى إلى ما انتهيت أنت إليه»، ثم تكلم والدى لكى ينقى صورتى وصورة خطيبتى من كل ما يجرحها وينقذ الرجل وقال: «هذه أقولها لأول مرة: ابنته مثل ابنتى تمامًا وأنا أتوجه بهذا الكلام إلى قلب هذا الرجل؛ أن ابنته قد جاءتنى ورجتنى أن أحاول إقناع والدها، وأنها تريد أن ترضيه وأنها لا تتصور أن تكون زوجة لأحد آخر غير رضا، وأنا هنا أتعهد أمامكم ومعى ابنى أن تكون حياتهما حياة سعيدة، واسألونى بعد الزواج لأنى أعرف ابنى جيدًا، وأعرف أيضًا هذه البنت الطيبة الملتزمة ابنة هذا الرجل الذى اعتبره أخًا أصغر لى وهو يعلم ذلك، أما السؤال الذى بدأ به كلامه فيكفى هجمة الحاضرين العاقلة عليه».

وطلب أحد الحاضرين أن يسمع منى، فكان كلامى يدور حول

مسئوليتى عن نفسى فى كل مراحل حياتى، وضربت مثلًا بحالى الآن، فذكرت أننى من الحادية عشرة صباحًا حتى الثانية بعد الظهر اليوم كنت مسئولًا عن بث أشهر إذاعة فى مصر، أتولى فيها إدارة هذا الأستوديو من حيث الخروج على الهواء ومن حيث تقديم البرامج وتنظيمها ومن حيث كتابة التقارير اللازمة التى تُعرض على أكبر مسئول فى هذه الإذاعة، هذه المسئولية لاتُعطى إلا لمن يستحقها وهم حوالى عشرين مذيعًا أنا ـ بفضل الله ـ واحد منهم؛ ألا يستطيع مَنْ وصل إلى هذا المكان والمكانة بهذا التاريخ الطويل من المواقف والأحداث أن يقيم بيتًا.. هنا انطلق الكلام من كل جوانب الغرفة بالتحية التى أزالت عن الرجل شيئًا من عبوس وجهه المرسوم والذى كان يظهر فى حدة نظراته وغلق شفتيه ونزول نظارته عن عينيه قليلًا، فبدا وقد أخذ جلسته وفتح مغاليق وجهه ورفع نظارته. فبادره الحاج «حافظ» بالتهنئة وكأنه قد انتهز الفرصة فرد عليه، وحدد يوم عقد القران فى المسجد فى يوم الخميس القادم فوافق الرجل، وكنا فى أول الأسبوع وانتهى هذا اللقاء بهذه النهاية السعيدة التى كانت نتيجتها انفراحة بعد حكمة الوالد التى بدت فى كلام يقيم جسرًا للتواصل ومرفئًا للراحة بعد أيام التعب.

فرحة المسجد والذقن الطويلة

هكذا أيامى فى الحياة صعبة ثقيلة، الفرح والسعادة فيها كأنها ومضات فى غرفة مظلمة، ولكن ماعاقنى ذلك يومًا، قد يكون ساءنى وقض مضجع الروح والنفس، ولكن مالانت لى قناة أبدًا ولاخُفضت لى هامة ولاذلت لى نفس، ولسان حالى هذه السطور الشعرية الثلاثة:

النور فى قلبى
وقلبى فى يدىّ ربى
وربى ناصرى ومعينى

ورغم ضجيج المناوئين والمعارضين ورغم الدعاوى التى تريد أن تسلبنى حق الحياة كما يحيا البشر، رغم كل هذا ينبلج صبح الهداية ونور القلوب الوضيئة وضياء الأرواح الجميلة، ويشرق كل هذا مع شمس الحقيقة التى يتساوى فيها البشر جميعًا، هؤلاء الذين لولا هذه الشمس ما كانت لهم نعمة الحياة.

اكتمل كل شىء وكانت الشقة التى سأسكن فيها فى موقع رائع، حيث كانت تطل على غيطان قريتنا الجميلة، وأرى من شرفتها طريق مصر إسكندرية الزراعى، ومنظر بديع حين تلم الشمس خيوط أشعتها على الحقول الخضراء وتنسحب فى هدوء، حيث يأتى الليل بقبته السماوية المزينة بالنجوم وحين يحل الهدوء والسكينة المكان.

وأذكر كم كانت فرحة كل من لهم صلة بى، وأذكر هذه الليلة التى تجمع فيها الإخوة والأصدقاء فى هذه الشقة التى تتكون من ثلاث غرف وصالة ومطبخ وحمام، وكانت فى الدور الثانى لمالك من أهل البلدة، وظللنا فى هذه الليلة جالسين فى الشقة نتبادل حكايات الصبا وكيف دارت بنا الأيام فى تقلبها بمن يعيشون على سطحها.

وجاء يوم عقد القران والزفاف وحدث مالم يكن متوقعًا، أخذ والد خطيبتى دراجته فى الصباح أمام دهشة كل من رآه من أهل بيته ومن الناس، وسحبها عدة أمتار ونظر إليهم نظرات غاضبة زاد من تأثيرها عليهم ذقنه الطويلة وكأننا فى جنازة ميت، وتركهم وانصرف إلى عمله.

وأثناء مروره على واحد من قرابة أبى وقف الرجل أمام دراجته وسأله متعجبًا: كيف وفرح ابنتك اليوم؟ فقال عبارتين؛ الأولى أنها ستنجب أولادًا مثله، والثانية لا يستطيع القلم أن يتحمل ثقل ألفاظها ومعانيها، فهو كما سلبه حق الإنسانية يريد أن يسلبه حق الرجولة، ولم يكن هذا الرجل حكيمًا، حيث جرى إلى أبى وحكى له ما حدث، ولأول مرة أرى أبى بهذا الغضب فقال: لا نرضى ظلمًا له ولا لابنته، هى تذهب إليه كما تريد فى أى وقت تشاء، لكن بعد هاتين العبارتين لايدخل بيتك.. وأحسست أن والدى قد أحس أن الأمر قد وصل إلى درجة لابد فيها من موقف، وأحسست بمدى غضبه فلم أناقشه. وذهبت لكى أعد نفسى ليوم العمر الذى ينتظره كل شاب فى مقتبل الحياة.

وجاء معظم زملائى فى إذاعة القرآن الكريم لحضور عقد القران، وجاء كل من أعرفهم فى قريتى، حتى امتلأ المسجد عن آخره. وأمسك بالميكروفون الزميلان الأستاذ «أحمد همام» والدكتور «عبد الله الخولى» وأبدعا فى تصوير العلاقة التى تجمعنا معًا فى إذاعة القرآن كإخوة يدركون معنى الصداقة والأخوة، مع قفشات الدكتور عبد الله الخولى مع الوالد ومع الحاضرين فى المسجد، بحضور قارئ من أشهر قراء مصر وقتها والذى أصر على المشاركة لما كان بينى وبينه، حيث كنت أحبه جدًّا ويبادلنى هذا الشعور الزاخر بكل أنواع الاحترام والأدب؛ القارئ الشيخ «الشحات محمد أنور» والمبدع الفنان المبتهل الشيخ «محمد الهلباوى» الذى كان بيننا مودة خالصة، لقد نشرا بصوتهما الفرحة فى كل أرجاء المسجد والأهم فى أرجاء النفوس الطيبة التى شهدت هذا العرس فى المسجد لكى تحوطه البركة وتعلوه المنة وتزينه عناقيد الرضا والقبول.

وأذكر أن الأستاذ الكبير «عبد القادر الزنفلى» أخى الكبير الغالى قال كلمة بمثابة عقد من لؤلؤ الكلمات وياقوت المعانى ودرر المشاعر، علقته ومازلت على عنقى فضلًا لهذا المعلم الكبير. وقام هذا المخلص الذى توحد مع الإخلاص وتزين بالالتزام وتجمل بالأخلاق الأستاذ الكبير «شاكر سلام» الذى لطالما وقفنا خلفه وهو يرتل القرآن غضًا طريًا كلماته تخرج فى يسر ومعانيه تسكن فى أناة فى سويداء القلب؛ فأخذ الميكروفون وألقى كلمة بليغة رائعة كانت تعبيرًا عن فرحته الشديدة، لأنه كان يعلم المعاناة كيف كانت طوال هذه الفترة العصيبة.

وكان مسجد سيدى إبراهيم بن أدهم قد امتلأ عن آخره، ودخل علينا خصمى الذى أهمل حلاقة ذقنه كمدًا طوال فترة معارضته للزيجه، فأضافت إلى تجهمه تجهمًا، ثم حانت لحظة المصافحة لهذا الرجل ذى الذقن الطويلة لإتمام هذه الزيجة المتعسرة.. فجلس المأذون أبى ليؤدى عمله، ومددت يدى اليمنى حيث يعرف كل أبناء البلد أننى أمد يدى لتصافح من يمد يده أمامى. والعيون كلها مصوبة على محراب المسجد حيث يجلس أبى والرجل على يمينه وأنا على شماله، ومددت يدى فتلقفها الرجل بسرعة وأمسك بها، وكان أبى قد أعد منديلًا لهذه المناسبة فوضعه على الكفين وقال لصهرى: قل زوجتك موكلتى ابنتى فاطمة البنت البالغة العاقلة الرشيدة على كتاب الله وعلى سنة رسوله وعلى مذهب الإمام أبى حنيفة النعمان وعلى الصداق المسمى بيننا، فقال الرجل هذا الكلام وراء أبي، ثم نظر إلىَّ وقد لمعت فرحة لمعت فى عينيه وقال لى قل: وأنا قبلت زواجها لنفسى على كتاب الله وعلى سنة رسوله وعلى مذهب الإمام أبى حنيفة النعمان وعلى الصداق المسمى بيننا فرددتها خلفه. ثم نظر إلى الرجل وقال ووجهه مستبشرًا بنور الفرحة قل: بارك الله لك فيها فقالها الرجل.

قمت إلى والد زوجتى قبل أن يهجم الناس وسلمت عليه وتعانقنا حتى أصابنى خشونة ذقنه الطويلة الشاهدة على ما فى نفسه، ثم اتجهت إلى والدى الذى كان يضع دفتر الزواج فى حقيبته الجلدية، ثم استلمنى والتفت يداه حول عنقى وأخذ يشمنى ويقبلنى وأنا بين يديه كطائر صغير بين جناحى أمه الرؤوم وأطال تقبيل رأسى. وأصبح المسجد ساحة للتهانى، وكل واحد ممن يهنئ له معى حال: فمنهم من يعانقنى ومنهم من يرفعنى إلى أعلى ومنهم من يرسل عينيه فى عينى وكأنه يقول لى هاقد تزوجت أخيرًا بعد هذا العناء الطويل، ومنهم من يرفع صوته بكلمات المرح الخفيف. وكانت لحظات لا تُنسى.

وأحاطنى إخوتى وأصدقائى وصحبونى وزوجتى حيث جلسنا جلسة فى ميدان بجانب بيتنا الريفى القديم، كل منا يجلس على كرسى، وأخذت الأغانى المعروفة فى هذه المناسبات تتردد، وجاء المهنئون والمهنئات من كل مكان. ثم أخذتنا سيارة إلى أستوديو الشرق فى مدينة قويسنا فأخذنا «لقطة العرس» التى أصبحت شاهدة على هذا اليوم. ثم وصلت السيارة إلى باب الشارع الذى سيكون محل السكن فنزلنا ودخلنا شقتنا، وبقى على الباب إخوتى جميعًا وخالتى ينظرون إلىَّ فى فرح ممزوج بقلق رأيته فى العيون وفى صفحة الوجوه فتعانقنا وسلموا جميعًا على زوجتى وانصرفوا، وأغلقنا باب الشقة.

ياااأالله هل تزوجنا حقًا، نظر كل منا للآخر، هل انتهى هذا الطريق الطويل. وبدأت بما أعرفه من سنة النبى ﷺ بالدعاء المعروف فى هذا الموقف «اللهم إنى أسألك خيرها وخير ما جبلتها عليه، وأعوذ بك من شرها وشر ما جبلتها عليه» وصلينا معًا ركعتين وقضينا ليلة من أجمل

ليالى العمر، حيث جمعنا حب وألفت بين قلبينا إرادة الحياة واستشرفنا مستقبلًا نريد أن نحياه طافت بنا ذكريات الألم كأنها صور سريعة ماتلبث أن تدور بها شاشة العمر تترى لتحل مكانها صور الزفاف الجميل.

ومن أول ليلة حددنا كيف تكون حياتنا وكيف نحافظ فيها على أنفسنا طاعة لله وأملًا فى رضاه. وقبل الفجر بقليل وجدت من يطرق علىَّ الباب برفق، ففتحت فوجدت ياسر أخى أرسله أبى ليطمئن علىَّ فطمأنته تمامًا، وأرسلت معه رسالة تجيب عن الكلام الذى قاله والد زوجتى والذى جعل والدى يرسل أخى فى هذه الساعة للاطمئنان، وكانت رسالة بالوجه عندما يرتسم على قسماته سيما الرضا وينطق بالفرح.. ومن الطُّرف التى لاتُنسى أننا بعد أن تناولنا الطعام كنا نريد أن نشرب مشروبًا ساخنًا فما وجدنا أثرًا لعود كبريت فى الشقة، فلما جاء أخى طلبت منه الرجوع بعلبة كبريت فأصبحت علامة على هذه الليلة نتندر بها إلى اليوم.

ورقة أخى محمد والموقف الصعب

ما تمنيت أن يحدث هذا الموقف ولا أردته ولاسعيت إليه، هذا الموقف الذى وقفت فيه أمام صهرى ـ والد زوجتى ـ بعد زواجنا بيوم واحد. سبب هذا الموقف أنه فى يوم الزواج عندما جاء هذا الرجل الذى كان من قرابة والدى وأبلغه بما قاله صهرى أقسم والدى بألا يدخل بيتك بشرط ألا تمنع ابنته عنه أبدًا فى أى وقت تذهب كما تشاء. ففكرت وكان الوقت ضيقًا جدًّا فأمسكت بورقة وكتبت فيها رسالة إلى والد زوجتى بدأتها بأدب شديد وكان موضوعها؛ إن كلامك الذى قلته لفلان وصل أبى ونسأل

الله أن يوفقنا وألا ترجع ابنتك إليك إلا للزيارة، ولأنى أعرف حدود الله وتربيت على ذلك فسوف لا أمنعها عنكم أبدًا لأن هذا حقها وحقكم وقد تعلمت أن أؤدى ما علىَّ من حقوق. أما أننى سأنجب أطفالًا مثلى فليتهم يكونون مثلى لهم إرادة وعزيمة مثل أبيهم، أما ماقلته أنت فقد سألت عنه فلم أجد له أثرًا فيما يقوله العلم فليس كل من وُلد بلا يدين يُنجب أولاد ًا بلا يدين، هذا عن معرفة علمية وسؤال لمتخصصين، وعمومًا هذه أمور لايعلمها إلا من ينفخ الروح فى الإنسان ليحيا. فأرجوك ابنتك ستزورك وقتما تشاء هى أو أنت ولاداعى للزيارة فى شقتى لأنها ستفسد مابينى وبين أبى. ومعذرة سوف لا أبيع أبى وهذا مستحيل عندى، وذاك حظى معك فى الدنيا ولعل الله يحدث بعد ذلك فرجًا.. وأعطيت الورقة لأخى محمد الذى كان يصغرنى ببضع سنوات وشددت عليه ألا يعلم أحد وقلت له بعد دخولى الشقة مباشرة اذهب وأعطه هذه الورقة ولاتقف لحظة واحدة، ففعل محمد ماأمرته به تركها له وراح.

يقول والد زوجتى وهو يحكى فيما بعد: «قرأت الورقة وأعدت قراءتها مرة بعد مرة، ثم ذهبت إلى الأستاذ عبد الله حامد هذا الرجل القريب من رضا وصديق والده وله فى شئون الناس رأى يُسمع كما هو معروف فى الريف، فقال الأستاذ عبد الله بعد أن قرأ الورقة اذهب لابنتك ورضا عنده أخلاق ومتربى ولايمكن أن يفعل ما كتبه فى هذه الورقة».

وتردد الرجل فى أن يأتينا فى اليوم التالى وكان يوم الجمعة، ثم جاء وطرق الباب، فقمت لأفتح الباب فوجدته أمامى وبجانبه ابناه الكبير والذى يليه واللذان لم يكن لهما وجود فى كل هذه المواقف والأحداث، فنظرت إليه وقد ملكت علىَّ الدهشة أركان نفسى وأُسقط فى يدى، فلم

أكن أتصور أن هذا الموقف سيحدث وكانت هذه الثوانى اختبارًا صعبًا ودقيقًا ماذا أفعل؟ وإذا فعلت كيف؟ وإذا دخل كيف يكون موقف أبى؟ لكن فى هذه اللحظة تغلب عندى ما قاله الأستاذ عبد الله حامد فقلت: اتفضلوا، وأمسكت بمقبض باب غرفة الضيافة على شمال الصالة التى أراد أن يجلس فيها، وقلت له اتفضل هنا فى إشارة إلى أنها ضيافة، ووقفت على الباب وأنا أثبت بسمة جامدة على قسمات وجه حائر وأغلقت عليهم الباب. ناديت زوجتى وأخبرتها بوجودهم دون أن يَظهر لها ما فى نفسى من قلق وتركتها معهم وأغلقت الباب، وقلت بينى وبين نفسى أن الموضوع سيمر.

لكن المخابرات الطفولية البريئة نقلت الخبر، حيث كان أحد إخوتى الصغار عندى وقتها وذهب ليعلن الخبر، فإذا بالجرس يهدر فى أنحاء شقتى الصغيرة ففتحت الباب فوجدت أخى حسن يقف على منتصف السلم وعلى وجهه قلق ووجدته مرتبكًا لم يستطع أن يتكلم حتى علا صوتى سائلًا عن سبب قلقه، ثم دفع الكلمات من فمه كأنه يقذفها وقال: أبوك تحت فذهلت ونزلت على السلم بسرعة وورائى أخى حسن، وحاولت أن أخرج من الموقف بأن أتصنع أننى طبيعى وعلا صوتى بالترحيب، فوجدت أبى كتلة من الغضب يقف أمامى، ولم يتكلم إلا بعبارة واحدة تلك التى يمكن أن يتغاضى عن كل شىء إلا هذه. قال أبى: «أنسيت أنه قال إنها سترجع لى بعد الزواج بعدة أيام ووقتها سوف.....» وتركنى وأطلق لرجليه طريق السير الغاضب وذهب، ووقفت وجهى فى مقابل وجه أخى حسن الذى قال لى: عليك أن تتصرف لأنى لم أجده بهذا الشكل فى حياتى.

لعل هذا الموقف الذى وقفه والدى يبدو غريبًا على شخصه المتسامح، لكن الرجل أحس أن الشجرة التى زرعها وسقاها ورعاها حتى بدت قوية مزدانة بفروعها المورقة الخضراء ومثمرة بأجمل مايكون من عناقيد الثمر يأتى من يهزها بعنف ويحاول أن يحرمها أن تستنشق روح الأمل وماء الحياة، وما جعله يخرج عن طور التسامح أنه قد سلك كل المسالك لكى يرضى صاحبنا فلم يفلح معه شىء، وما دفعه ودفعنى للتمسك بهذا الموضوع هى زوجتى التى جاءت إليه لتعلن رأيها وقد كانت صريحة فى حفظ مكانة والدها رغم ذلك. ولكن العبارة التى نطق بها الرجل كان لابد لها من موقف يحس معه أنه اقترف إثمًا بل كبيرة فى حق ابنه الذى لم يخرج منه إساءة طوال هذا الطريق الطويل. كان والدى طوال الفترة السابقة الصعبة يلتمس للرجل الأعذار، ويحاول أن يجعل الأمر فى مجال الاختلاف بين المعارف الذين يعملون حسابًا للجيرة والقربى والعلاقات الاجتماعية، وخصوصًا أنه يفرض رأيه على ابنته العاقلة المشهود لها بالتعقل والتدين وصواب الرأى، ثم بعد ذلك كله يتفوه بكل هذه الكبائر الكلامية ويهرف بكل هذا الإثم الإنسانى ويخرج هذه الإهانة الصريحة، وتكتمل الصورة بشكله العابس يوم العرس أمام الناس.. لكن مع ذلك كله كان أبى ـ هذا الرجل العظيم ـ هو من أرسل حبل الوصال مرة أخرى بإرادته، لكى يُرضى من وقفت موقفًا يجعلنا جميعًا أنا وأبى وكل من يحبنا ونحبه نشكرها عليه..

كان لابد أن يكون لى موقف حكيم. فالرجل يجلس فى بيتى مع ابنته، فانتظرت حتى فُتح باب الغرفة ثم خرجت، وقفت بجانب زوجتى وهى تودعهم ونزلت أمامهم على السلم حتى سَمِعتُ صوت غلق باب الشقة

حتى لاتسمع ما أقول ـ حتى لا أجرح مشاعرها ـ ثم قلت له، وبدأت بالنداء عليه بكلمة يا عمى: أرجوك لاداعى للحرج فالكلام الذى قلته لفلان قد وصل لوالدى بالحرف الواحد لذلك أرسلت إليك الورقة، فأرجوك ابنتك ستزورك كما تريد أنت وكما تريد هى، ولعل الأيام تداوى ما بيننا أرجوك لاداعى للحرج.. فنزل الرجل على السلم دون أن يتكلم وذهب مباشرة إلى الأستاذ «عبد الله حامد» الذى عرف ما حدث فكان رده: ألم أقل لك إن رضا لن يغلق فى وجهك الباب، ولكن الذى حدث هو عقاب لك على ما فعلت به وما قلته فيه، وطمأنه أن الغد يحمل دائمًا الجديد مما يسعد.

وبعد أسبوع واحد أخذت زوجتى بنفسى ووقفت على باب شارعنا القديم لتدخل على أسرتها لأول مرة بعد الولادة المتعسرة لهذا الزواج. وظللنا على هذا الحال حتى جاء عبد الرحمن فى الشهر الحادى عشر لزواجنا، وبعده بعدة أشهر تجهزت وزوجتى للعمرة، فأمرنى والدى نفسه ـ هذه النفس الكبيرة والروح العالية ـ أن أذهب إلى والد زوجتى فى بيته وأزوره قبل السفر، وحدث ما أمرنى به واسُتقبلت استقبالًا طيبًا، وكانت سعادة زوجتى لاحد لها، وكانت سعادتى لها وبها لاتوصف، وأحسست أنى قد رفعت عنها حملًا ثقيلًا كان يشقيها دون أن تستطيع له بيانًا. وكان ميلاد عبد الرحمن بالنسبة لهم فرحًا كما كان لنا، وكان جده لأمه سعيدًا جدًّا به، ولايمر يوم عليه دون أن يراه، ولعله كان يعتذر بهذه المعاملة للابن عما فعله بأبيه.

عبد الرحمن.. من غرفة الولادة إلى طب الأزهر
أفنان.. ذواتا أفنان

زينة الحياة الدنيا ومتعتها وروحها الجميلة، هكذا الأولاد الذين يجعلون للحياة معنى جميلًا وللعيش مذاقًا رائعًا وللدنيا شكلًا مختلفًا. فالإنسان عندما يعيش وحده لنفسه فقط تكون متعته قليلة مهما كثرت حقيرة مهما عظمت لأنه هو وحده الذى يعيشها، لكن عندما يكون له من يحمل اسمه ومن زُرع حبه فى قلبه ومن توطن وده فى نفسه ومن تغلغلت روحه فى روحه، هنا شعور مختلف لايحس به إلا لمن يعرف معنى الأبوة، تلك التى تُحيل الإنسان إلى مهمته الخالدة فى الدنيا وإلى نعمة العطاء التى يكون بها الإنسان مستحقًا لمعنى الإنسانية.

وقبل أن أتحدث عن تجربتى مع عبد الرحمن منذ ولادته وحتى باب كلية الطب، أقف قليلًا عند حياتى عندما تزوجت، وكنت وقتها فى نهاية ديسمبر 1994. كان راتبى فى الإذاعة حوالى مائتى جنيه أدفع منها خمسة وسبعين جنيهًا إيجار شقة والباقى لكل مستلزمات حياتنا ولسفرى الذى كان وقتها خمسة أيام فى الأسبوع. فكنت أركب القطار باشتراك سنوى خاص بالموظفين، وأمشى من أول شارع الجلاء مرورًا بقسم الأزبكية والقللى ثم بمبنى الأهرام ثم بشارع 26 يوليو حتى أصل إلى أول شارع التليفزيون، فأتجه يمينًا وعلى شمالى هيلتون رمسيس، كل ذلك حتى أوفر أجرة الأوتوبيس، وأرجع بنفس الطريقة لأستقل القطار. وكنا نمشى بنظام صارم فى المصاريف حتى ينتهى الشهر الذى كنا ننتظر على شوق نهايته، وكانت خالتى تعرف هذه الحالة فكنا تحت عينيها دائمًا تغدق علينا من نعم بيت أبى العامر دائمًا بالخيرات.

ظللنا هكذا حتى بحثت عن عمل خارجى، فكنت أذهب إلى أستوديوهات الأشرطة التى كنت أعرف بعض أصحابها لأسجل لهم مقدمات أشرطة القرآن لكبار القراء، وأحصل مقابل هذا على مبالغ قليلة كانت تساعد فى أعباء حياة تمشى أولى خطواتها على الأرض. وأذكر أننى جاءنى تليفون أثناء تنفيذى لفترة على الهواء لشخص عرّفنى بنفسه وبدا شديد الأدب، وكان صاحب شركة للإنتاج الإعلامى اسمها «مروج» وقال: إنه يتابع إذاعة القرآن منذ فترة طويلة وقد وقع الاختيار عليك لتؤدى التعليق الصوتى على برنامج عن الإعجاز اللغوى والعلمى للقرآن الكريم باسم «المعجزة الخالدة»، وظللت أكثر من شهر أسجل هذا البرنامج فى أستوديوهات خارجية، ولقى شهرة كبيرة عندما نزل فى الأسواق، وأخذت فيه أجرًا ألفى جنيه كانت كفيلة بأن توسع علينا بعضًا من أمور الحياة. خاصة وأنه بعد شهرين من الزواج نبتت فى أرض الرحم الخصبة نبتة لبشر قادم أعلن عن ظهوره، فكان فرحًا غامرًا وتمنيت وقتها أن تكون بنتًا ولكن ظهر على شاشة الطبيب أنه ولد.

وهناك فى عيادة الطبيب قبل أن نرجع سميته عبد الرحمن، وفى ليلة مولده كان اغتيال رئيس وزراء الكيان الصهيونى «إسحاق رابين»، وكنا نجلس فى الصالة ونتابع الأخبار وزوجتى فى الغرفة معها خالتى والداية المجربة الحاجة «دولت» ذات الوجه الراضى والبسمة المشرقة واليد الخبيرة والكلمة الشافية، التى شهدت لحظة مولدى منذ أكثر من ثلاثين سنة، وشاءت الأقدار أن تكون أول من تتلقى على يديها أول مولود لى، وقد أصبحت خبرتها مضرب المثل.. فعندما جاءت وكشفت قالت إن الأمر طبيعى وأن الأمور تجرى فى مسارها وأن الولادة ستكون صباح

اليوم التالى، وكان معروفًا عنها أنها إذا شعرت بأى شىء غير طبيعى كانت تستعين بطبيب وتقوم بالاتصال به.

وكنا فى يوم 4 نوفمبر 1995، وسهرنا أنا وأبى معظم الليل، وذهبت الداية ثم رجعت فى الصباح والكل منتظر، وما بين الضحى والظهيرة بدأت آلام الولادة يُعَبَّر عنها بالصراخ والتنهدات المختلطة بالدعاء، حتى سمعنا صوت عبد الرحمن لتسكت كل الأصوات لصوته وفى هذه اللحظة كنت قد أعددت نفسى بالوضوء لكى أستقبله بالصلاة بمجرد أن أسمع صوته. وهذا ما حدث، فبمجرد أن أعلن عن نفسه كبرت تكبيرة الإحرام وبدأت فى ركعتين شكرًا لله، حتى إن أحد إخوتى اعتنقنى من ظهرى لما رآنى قد دخلت فى الصلاة، وبكيت أثناء الصلاة شكرًا لمن وهب سبحانه. ودخلت بعد الصلاة فرأيته محمولًا على يدى خالتى التى حملت عنا كل شىء، ولمحت يداه تضربان فى الهواء بأصابع خمس فى كل منهما، تعلنان أن الله يهب اليد والأصابع الخمس لمن ليس له يد ولا أصابع خمس، وترد على من نطق زورًا وغشى فجورًا وتألى على من خلق فسوى وقدر فهدى.

وهنأت زوجتى التى تحول وجهها بعد التعب راحة وفرحًا غامرًا، ولاأنسى هذه الأيام حيث كنت فى منتهى السعادة، وأحسست أن هذا الموهوب ليس لى فى وجوده كائنًا حيًا عاقلًا أى فضل وإنما الفضل فيه لله سبحانه وتعالى. ورجعت بى الذاكرة فى سالف الأيام عندما كنت هذا الطفل الذى كان محفوفًا بالرفض بل بتمنى الموت من الناس حوله، فإذا هو يخرج منه هذا الولد الساكن كملاك من بشر، يُصدر لحنًا شجيًا كأنه يغنى للحياة، ثم هذا الحب الذى انفجر فى قلبى عندما رأيته، وهذا

الجذب الروحى الذى أحسسته، وهذه الرغبة فى شمه كلما اقتربت منه، وهذه المتعة فى النظر إلى قسمات وجهه الصغير، والأمان الذى أحسه عندما أُسلم إصبعى الصغير فى كفه الوثير فيضغط بأصابعه عليه وكأنه يقول هذه يدى يدك وهذه أصابعى الخمسة أصابعك وهذا عهد بينى وبينك. وكنت أقضى وقتًا طويلًا معه، وبدأنا نتعلم كيف نحافظ عليه فى هذه السن الصغيرة مستعينين فى هذا بأصحاب الخبرة من الأهل الذين كانوا موئلًا لنا فى كل الملمات.

وفى سن صغيرة أصبح عبد الرحمن ابن أبيه فى شقاوته التى لاتطاق كما كان أبوه، وكان مضرب المثل فى تحركاته التى لاتهدأ أبدًا، لدرجة وصلت إلى حد الخطورة، حيث كان يمثل هو وابن عمه فريق المخاطرة التى لايتصورها بشر. ففى أحد هذه المخاطر فوجئ الجميع أنهما قد تسلقا عمود من أعمدة الإضاءة وكان على شكل سلم حتى وصلا إلى آخر درجة موصلة إلى أسلاك الكهرباء، وهنا وقف الجميع ينتظرون ماذا يحدث، حتى خرج والدى ـ رحمه الله ـ مع أحد إخوتى وأمرهما بأن يلزما أماكنهما وصعد هو وأخى حتى ضمنا نزولهما بأمان. هنا أدركت فى عبد الرحمن لمحة المغامرة وحب الاستطلاع، فكنت أراقبه بعناية. ولكنى أعترف بخطأ كنت دائمًا أقع فيه عند التعامل معه، لقد كنت أعفو كثيرًا لكن عندما أعاقب يكون العقاب شديدًا، لدرجة أننى عندما أتذكرها الآن يخفق قلبى وأسأل نفسى وهل كانت الرحمة قد نزعت من قلبك؟

ولما وصل إلى سن المدرسة، لم يكن فى ذهنى أن يدخل الأزهر لكن فى هذا الوقت تصادف سؤالى لاثنين ممن كنت أثق تمامًا فى رأيهما: الأستاذ الدكتور «عبد الشافى عبد اللطيف» أستاذ التاريخ الإسلامى فى جامعة

الأزهر الذى شرح لى أن الطالب الأزهرى يجمع بين الحسنيين، فهو يدرس العلوم الشرعية والقرآن ويدرس أيضًا العلوم الأخرى كالكيمياء والطبيعة والرياضيات، ونفس هذا الكلام قاله لى الإذاعى الكبير الزميل الدكتور «فوزى خليل» ودلل على ذلك بولديه جهاد وأنس اللذين كانا طالبين فى كلية طب الأزهر. واشترط الاثنان أن يكون هناك اهتمام شديد بالدراسة لأن المواد كثيرة فيجب أن يكون مقبلًا عليها. وأذكر أننى قد صليت صلاة الاستخارة فوجدت نفسى مهيأ نفسيًا للتقديم له فى المعهد الأزهرى.

فى هذا المعهد، ذقت أنا وعبد الرحمن الأَمَرَّين من معاملة بعض المدرسين، الذين كانوا ـ للأسف ـ يفتقدون أبجديات التعامل مع أطفال مطلوب منهم أن يحفظوا القرآن الكريم ومطلوب منهم أضعاف ما هو مطلوب من أقرانهم فى التعليم العام، فكان الإهمال والرعونة هى السمة السائدة فى بعضهم. وأذكر أننى تمسكت بعقاب مدرس القرآن الذى كان معروفًا عنه أنه يضرب الأولاد «بالشلوت» وفعلها مع عبد الرحمن ابنى، وكنت أول مرة أعرف هذا الموضوع فذهبت إلى المدرسة فإذا بى أفاجأ بأن الأستاذ المحترم يدخل الفصل بالسيجارة وأنه لم يكن حاصلًا على مؤهل عالى، لكل هذا فقد اعتمدت على نفسى فى تدريس المواد الشرعية والقرآن وعلى الدروس الخصوصية فى المواد العلمية، وتعبنا معًا فى هذه المسيرة التى كانت رغم تعبها ممتعة، ومازالت آثارها عند عبد الرحمن فى المواد الشرعية واللغة العربية التى مثلت عنده زادًا كبيرًا فى حياته.

أما دخوله كلية الطب فهذه قصة نجاح تستحق أن تروى، ذلك أنه كان متفوقًا فى دراسته نتيجة لهذا الاهتمام الذى نعيشه معًا، إلا أنه كان

ينتابه أحيانًا بعض الفتور الذى ينعكس على بعض نتائجه فيحتاج لمن يشجعه ويحفزه. لذا عندما جاءت هذه السنة الفاصلة قمت بتجهيز غرفته من جديد، مكتب جديد خاص به وإضاءة جديدة وشكل مختلف واهتمام غير عادى. وكان قد وعدنى بأن يؤدى ما عليه وكنت أراقبه من قريب، فوجدته لا ينام إلا قليلًا وإذا ناديته مرة واحدة لإيقاظه يفزع، وإذا تأخرت قليلًا فى ذلك يلومنى ويعتب عَلَىّ. وكنت متابعًا له فى المواد الشرعية واللغوية، حتى إننى أذكر أنه لم يفقد فيها جميعًا إلا ثلاث درجات، وكان أساتذته فى المواد العلمية يدبجون فيه قصائد شعر. ما فعلته معه هو أننى قد هيأت له جوًا مناسبًا تمامًا ثم حاولت أن أستخرج ما عنده من قدرات أعلم يقينًا أنها مخزونة لديه، ثم نفخت فيه روح التفوق والنبوغ التى أعرف مكامنها فى شخصيته، وعشت معه الحلم الذى كنا نأمله، فكان هذا الحوار بينى وبينه فى مصيف بالإسكندرية قبل النتيجة ببضعة أيام.

رضا: بعد مراجعتك للامتحانات كم تتوقع النتيجة؟

عبد الرحمن: أتوقع 93٪ حتى 95٪.

رضا: يعنى لا أطمع فى 97 ٪ لنطمئن على دخولك كلية صيدلة؟

عبد الرحمن: أنا عملت اللى علىَّ وتعبت وربنا يسهل.

رضا: أشهد بذلك، وعلى فكرة أى نتيجة بعد الذى رأيته منك أنا راضى بها تمامًا.

وبعد هذا الحوار بحوالى خمسة عشر يومًا كنا نستعد أنا وأمه للخروج إلى عزومة أخى فى رمضان، فجاءنى جرس التليفون المحمول فنظرت

فرأيت اسم هذا الشاب الذى يعمل فى كنترول الشهادة الأزهرية وكان قد وعدنى أنه سيبشرنى بالنتيجة قبل أن تُعلن. فبمجرد أن قرأت الاسم قلت يارب والنبى لاتخذلنا، فسألتنى زوجتى فقلت لها نتيجة عبد الرحمن، فتركت كل ما فى يديها وتسمرت بجانبى، وفتحت التليفون ورحبت به وقلت خيرًا، فقال لى مبروك عبد الرحمن جاب 96 ونصف فى المائة، فحمدت الله وقلت لزوجتى فإذا بها تصرخ بالحمد لله وتنهمر عيناها بالبكاء، ولم أستطع أن أمنع نفسى فنزلت دموعى وخررت ساجدًا لله، وجاء أهل البيت على صراخنا السعيد فانطلقت زغاريد الفرح بصراخ السعادة. ومازال الرجل معى على التليفون فقال هذا المجموع يضاف إليه درجات المستوى الخاص إذا حصل عليه، فى هذه اللحظة جاء عبد الرحمن الذى خر ساجدًا بمجرد أن عرف وأصبح مجموعه بعد المستوى الخاص 98٪ ليكون طالبًا فى كلية طب الأزهر، ولتكون آية على أن من يعرف نفسه ويقدر إمكاناته ويجيد استغلالها لابد أن ينجح، وهذه سُنة من سنن الله فى الخلق.

أما «أفنان»، زهرة البيت التى يفوح عطرها فى بيتنا، أبنتى التى اخترت اسمها من القرآن الكريم حيث كنت قد توقفت عند هذه الآية التى يصف فيها الله ـ سبحانه وتعالى ـ الجنة من خلال صورة رائعة:

﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ . فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ. ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾.

فأسرنى الاسم، فعزمت لو أن الله وهبنى بنتًا سأسميها أفنان.

ورأيى أن الاسم لابد أن يتوافر فيه عدة سمات؛ أولًا أن يكون له معنى، ثم ألا يكون غريبًا بحيث لا يكون سببًا فى فى سخرية أو استهزاء، وأن يكون معبرًا عن ثقافة ينتمى إليها صاحب الاسم، لذلك فقد اخترت

هذا الاسم القرآنى. والذى تصادف أن ابنى اسمه عبد الرحمن، وابنتى اسمها أفنان هذه الكلمة التى لا وجود لها فى القرآن إلا فى سورة الرحمن وكأننا بهذين الاسمين نستجلب الرحمة من صاحب البركات والرحمات سبحانه.

وأذكر ليلة مولدها فى الثالث والعشرين من شهر يونية 1999، وقبل صلاة الفجر كانت زوجتى تحاول أن تُخرج من بطنها روحًا أراد الله لها الحياة، وحولها النساء فى صالة بيتنا الجديد الذى انتقلنا إليه منذ فترة قصيرة، والصرخات تتعالى والأنفاس تخرج بصعوبة والطلق فى أنحاء البطن يعلن عن قرب ميلاد جديد. وأنا واقف بين يدى ربى أدعوه أن يخرج الروح من الروح بإذنه، وأسمع الشيخ محمد الهلباوى بصوته فى الإذاعة وهو يقدم تواشيح الفجر على الهواء يأتينى من ميكروفون المسجد الذى يملأ الآفاق، يارب، فأردد معه يارب ثم أُذن لصلاة الفجر فذهبت للصلاة فى المسجد وسجدت لله داعيًا أن يكتب السلامة للأم وللمولودة، وعدت إلى البيت، وسمعت وأنا على درجات السلم صوت «أفنان» تعلن عن بداية حياتها على الأرض وترسم على وجوهنا بسمة الأمل والتفاؤل لأمنية كنت لطالما تمنيتها، أن تكون لى بنت هبة من الله ونسمة رقيقة أحتمى بطيفها العليل من قيظ قسوة البشر. ولأن الاسم لم يكن مشهورا فقد أخذ فترة حتى اعتاد عليه المحيط الذى نعيش فيه.

تحتاج البنت فى التعامل معها إلى لين ورفق، لأنها ذات طبيعة مختلفة تتسم بنوع من الرقة، فلابد أن يُراعى ذلك، فلم تجد منى ما وجد عبد الرحمن من شدة. وهى فى المقابل لم تكن بهذه الحالة من الشقاوة التى كانت عند عبد الرحمن بل كانت هادئة الطبع. ولم أكن معها بنفس القدر

من الاهتمام فى الدراسة الذى اتبعته مع عبد الرحمن وإن كنت قد وفرت لها ما وفرته لعبد الرحمن. ومن المهم جدًّا أن يقرأ الأب أبناءه جيدًا بحيث يستطيع أن يتعامل معهم. ففى حالة أفنان أدركت أن الضغط الشديد يمكن أن يخلف عكس المطلوب، بمعنى أن الإمكانات العقلية تكاد تكون متساوية مع أخيها أما الهمة والقدرة على العمل والنظرة إلى المستقبل وما يتطلبه من عزيمة ومضاء فهناك فرق واضح، لذا فقد راعيت ذلك وإن كنت متابعًا متابعة جيدة دون أن أتدخل مباشرة حتى لا يحدث حالة من عدم الثقة فى النفس، إلا إذا كان لحل مشكلة أو لفك حالة من التعقيد النفسى أو الدراسى، لذلك فقد كان هناك فرق ليس قليلًا فى المستوى الدراسى والنتيجة بين الاثنين.

لكن لأنى كما قلت أعرف إمكانيات كل منهما، فقد رأيت فى أفنان مشروعًا لإعلامية ناجحة، إذ هى تتمتع بالقبول والرضا بمجرد مطالعة الوجه وتتمتع بالوعى اللازم وبالمناقشة المنطقية وبالحجج عندما تكون هناك قضية للأخذ والرد، ولو أضيف إلى كل هذا الدراسة المنهجية للإعلام إذًا يمكن أن نكون إزاء شخصية إعلامية محترمة، لهذا فقد قدمت لها فى كلية الإعلام جامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا، علها تكون شخصية من الشخصيات التى تضىء طريق الناس بالحقيقة، وتسهم فى بناء مجتمع قوامه الصدق والإخلاص، هذه الرسالة التى تتم عبرها وعبر كل من يعرف قدسية للكلمة ودورها فى رقى المجتمعات.

فجيعة النفس والروح.. موت أبى

رحلة الحياة، تلك التى عشتها معه، كان هو فيها الروح التى تدفع

روحى للحياة، كان هو الأمن والأمان من كل ما تخاف منه النفس، كان حافظ السر لكل خبيئة من خبايا نفسى وروحى، كان وطنًا أعيش فى أرجائه، وشجرة للظل من حر جنايات البشر، وكرمة للهدوء من كل الصخب، ونسمة عليلة تهب كى تمنح الأيام بصمة الأمل، وحاملًا للسيف لمن تسول النفس له الاقتراب من ضيعة الأمانى فى بنايات حلمى المعد للحياة.

«أبى» الذى حملنى على يديه عندما ولدت وكان ثابتًا ثبات جبل وصلى ركعتين للحياة.. أبى الذى راعانى صغيرًا وبث فى أنحاء نفسى وأرجاء عقلى أنك المسئول دائمًا أمامى عن الإنسان داخلك دون أن تقول يَدَىَّ.. أبى الذى فتح باب الفصل لكى أعلق القلم فى أسنان رحلتى الطويلة رغم الصدود ممن أراد أن يغتال فى نفسى الحياة.. أبى الذى عاش قلبًا يحتوينى وجفن عينه ملاذا لى من الهموم وكف يده مصدرًا للحنان فى حياتنا معًا، كان أبى وأخى وصديقى الذى أكلمه فى كل شىء، كان طبيبًا لنفسى ومرشدًا أمينًا فى كل مراحل حياتى.

قبل وفاته بعدة أيام ذهبنا سيرًا على الأقدام لقرية بجوار قريتنا لاستخراج ورقة من المجلس المحلى واستغرق الطريق أكثر من نصف ساعة، وكانت متعة تحتوينا حينما يجمعنا طريق ونتكلم، وكنت أنصت إليه لأنه كان حكاءً ممتعًا وكان كل ما يقوله ينتصر فيه لقيمة أو مبدأ. وفى هذا اليوم حكى لى كيف كان حريصًا طوال حياته على ألا يدخل إلى بطوننا لقمة حرام، وحكى قصة له عن موقف مع شخصية حاولت إرغامه على الحرام وكانت ذا سطوة لا تُدفع لأنه كان يرأسه، فتجاسر أمامه وقال فلتفعل ما تريد لكن لن أطعم عيالى لقمة حرامًا، فلم يرغمه

على أن يشاركه فى شىء، فوقع هذا الشخص ذو السطوة وهنا حامت الشبهة حول والدى وظل عدة أيام كما يقول لا ينام، إلا أن الله قيض له من يدافع عنه وهو سائق السيارة الذى شهد بأنه لم يكن له اشتراك بأية صورة فى هذا الذى يفعله صاحب السطوة، وقال له هذا الرجل وهو مدان فى النهاية أعرف أن الله سوف ينجيك واعذرنى فى محاولة اتهامك.. وكأنه كان يحكى لى عن سبب رضاه عن نفسه وعن تحريه الحلال رغم كثرة العيال والحاجة أحيانًا.

وقبل وفاته بعدة أيام، كنت عائدًا من فترة تنفيذ على الهواء وقابلته مصادفة فى مدينة قويسنا، وسرنا سويًا لقضاء الحاجات الخاصة بالبيت وطلب منى أن أذهب لكن لأنى أعلم أن يريد أن نكون معًا بقيت معه حتى قضى كل ما يريد ورجعنا سويًّا، فتحدث معى عن عملى ـ وكنت مذيعًا لم يمر علىَّ أمام الميكروفون سوى سنتين ـ قائلًا: «عندما أسمع صوتك أشعر أننى مرتاح ليس لأنك ابنى» فقد كان لا يفوت سماع أية فترة من الفترات التى أنفذها على الهواء.

كانت متعته فى اللعب مع عبد الرحمن وباقى أولاد أخوتى والجلوس معهم، وفى الليلة التى سبقت وفاته، وكان ذلك فى يوم السابع من يونية 1998، جاءه أحد الناس لكى يخرج له قسيمة زواج من المحكمة وظل معه، لفترة ثم انصرف وأنا جالس معه، فنادى عبد الرحمن ابنى فى صالة البيت وكان أبى يجلس على أريكة من الخشب ارتكن إلى قائمها الأيمن وظل يداعب عبد الرحمن. كانت سنه ثلاث سنوات وكانت متعته المفضلة، ولما قاربت الساعة الثانية عشرة قمت ووقفت على أول درجات السلم وهو مازال يداعب عبد الرحمن، فطلب منى الجلوس فقلت له

عندى امتحان غدًا، وكنت وقتها أمتحن فى كلية الدعوة الإسلامية جامعة الأزهر، فاعتذرت له ودعا لى وصعدت درجات السلم، ولم أكن أعرف أن هذه آخر مرة أراه أو أتحدث إليه وهو حى. ونزلت من البيت فى الصباح، وكانت عادتى أننى عندما أنزل بعد الفجر بقليل قبل شروق الشمس أسمع صوته يرتل القرآن والباب مفتوح، فأملأ نفسى تقى من وجهه التقى النقى وينفحنى بنفحة من دعائه.

فى هذا اليوم نزلت، وكانت الشمس قد طلعت فوجدت الباب مغلقًا فقلت عله يكون قد أخذ شيئًا من الراحة فلم أفتح الباب، وسلكت طريقى إلى الامتحان ومعى صديقى الشيخ محمد عثمان الذى كان يدرس معى فى كلية الدعوة الإسلامية وتركنى فى مدينة قويسنا لأمر ما، وبعد أن رجعت إلى البلد ونزلت من السيارة التى ألقت بى فى شارع سكة المزلقان الطويل وجدت كل من يرانى يطيل النظر إلىَّ، وبدأت أشك فى أن أمرًا ما حدث، ونظرت فى نفسى لماذا ينظرون إلىَّ بهذا الشكل، حتى اقتربت من البيت، فصادفنى واحد من أهل البلد من الشباب سلم علىَّ من بعيد وأسرع فى خطوته وبدا فى عينيه قلق ظاهر، وبدأت أقترب أكثر من البيت حتى كان بينى وبينه حوالى مائتى متر وجدت أحد أقارب أبى يستقبلنى ولم يستطع أن يتكلم فسألته ماذا حدث، فرأيت عينيه تنهمر بالدموع فصرخت فيه ماذا حدث؟، فرد الجار المقابل لنا ـ وقد جاء لما وجد الأول لم يستطع الرد ـ وقال: كان فى الغيط، فقلت من؟، فى هذه اللحظة كنت أمام البيت والكل كان ينتظر وصولى، فخرج أخى ياسر من شرفة بيتنا المطل على الشارع وهو منهار تمامًا والدموع تملأ وجهه وهو يقول: «أبوك يارضا أبوك يارضا»، فلم أستطع أن أستوعب وكأننى فى كابوس مخيف،

ووجدت فى انتظارى كم كبير من الناس، فقد صرح لهم حسن أخى الأكبر أنه لن يفعل أى شىء حتى يأتى رضا، وبعد أن سمعت من ياسر الخبر كأنى لم أصدق حتى دخلت البيت وسمعت ولولة النساء الثكالى، ورأيت الصالة وقد امتلأت بالناس الذين صوبوا إلىَّ أعينهم فى مشهد عرفت وقتها أن الموت قد زارنا فى أعز ما لدينا.

أحسست أن جسمى كله قد تفكك من بعضه، ووجدتنى أقع على الأرض وكأن كل عضو فى مكان وأنظر إلى الناس وكأنها خيالات تمر أمامى، وغبت عن الوعى لدقائق، وسألت ماذا حدث؟ فقد كنت أجلس معه حتى منتصف الليل. فقالوا إنه ذهب أمام الجميع إلى قطعة الأرض الزراعية التى يملكها والتى يقضى فيها وقته أحيانًا، ونزل ليرى تدفق المياه على رأس هذه القطعة من الأرض على مرأى ممن حوله من المزارعين وجلس على مقربة منهم. وبعد عدة دقائق وجدوه وقد مال بجنبه على الأرض، فأسرعوا إليه فوجدوه قد أسلم الروح وكانت المفاجأة صاعقة. وبعد أن سمعت منهم تمالكت نفسى وأشفق علىَّ البعض أن أدخل عليه. ولكن دخلت فوجدت أبى وجه مستريح فيه سلام وأمان وسكينة وهو نائم نومته المعروفة، فقبلته من جبهته وأطلت لمس جبهته التى طالما سجدت لربها وركعت، وقبلت يديه المضمومتين على بعضهما ثم وضعت الغطاء وقد رجعت إلىَّ نفسى.

أشفق علىَّ بعض أقاربى أن أحضر تجهيزه، فقلت لن أتركه لحظة واحدة حتى القبر فدعونى. ولا أنسى هذه اللحظة التى رفعوا فيها قماش الكفن قليلًا حتى يغيب رأس أبى فى الكفن الأبيض ليذهب إلى ربه، وقتها ظللت أبكى لمدة طويلة. وكلما تذكرت هذه اللحظة خفق قلبى لكنى تمالكت نفسى ووقفت أمام الناس فى المسجد فى صلاة الجنازة،

وأنا أعلم أنه لم يكن يومًا مدينًا لأحد لا ماديًا ولا معنويًا، ولكن قلت هذا أبى لو كان هناك لأحد دين عليه فنحن أبناؤه نسد عنه، ورجوت الناس وأنا أبكى أن يخلصوا له الدعاء. ووقفت على شفير القبر أودع هذا الرجل الذى لولاه ما كنت وماكان أحد من إخوتى. وظللت لعدة أيام وأنا ذاهل كيف أعيش دون أن أراه، وقتها أحسست باليتم الحقيقى وأحسست عندها بشىء من الخوف من شىء ما.

ولم ينقذنى من هذه الحالة إلا أن وضعت برنامجًا لنفسى قمت به فى التقرب لله والالتجاء إليه وقراءة القرآن، حيث كنت أقرأ القرآن معظم أوقات النهار، وأعدت قراءة كتاب لابن القيم بعنوان «الروح» هذا الكتاب الذى يتحدث عن الروح الإنسانية كيف خلقها الله وخصائصها وكيف تلتقى الأرواح وأنواع الأرواح وماذا يحدث للروح عند النوم وكيف تلتقى أرواح الأحياء والأموات، هذا الكتاب أنقذنى فى هذه الفترة. وكنت أذهب بين الحين والآخر إلى قبر أبى فأعود حزينًا، لأن القبر كان يذكرنى بعنف بحقيقة الموت لذا فأنا ممن يُقلون فى زيارة المقابر، ولكن أخذت على نفسى عهدًا ألا أنسى أبى ولا أمى فى عباداتى ودعائى. فبين الحين والآخر أقرأ لهما القرآن كاملًا، وفى رمضان لكل واحد منهما ختمة خاصة به وعمرة خاصة لكل منهما فى كل عمره أذهب فيها إلى مكة المكرمة.

مات أبى الذى كنت أحس دائمًا أننى أستند إليه عندما تداهمنى الدنيا، وطالما كنت أخاف من هذا اليوم الذى يترك الدنيا وراءه، وكان إذا زارنى هذا الخاطر أطرده حتى من خيالى. وإذا كان أبى قد مات فإنه سيعيش معى فى كل لحظة من لحظات حياتى، يعيش معى روحًا تدفعنى، وقيمًا حُفرت فى نفسى، وقوة فى مواجهة الشدائد والصعاب، وأملًا منقوشًا

بالصبر والعمل الدؤوب على صفحة العمر التى عشتها معه. وإذا كانت لى بعد الموت أمنية من ربى فهى أن أرى وجه أبى وأملأ عينى من طلعته، وكما كان لى أبا فى الدنيا يكون لى أبا فى جنان الخلد مع المتقين. وقد كتبت قصيدة فى حياته بعنوان «أبى» عبرت فيها عن خوفى من هذه اللحظة:

يتصفحُ ذاتى
يقرؤنى أوراقًا بجميع الأحبار الصور الأحجام
يعرفنى صمتًا يتكلم
أتمدد فى أحداق عيونه
يغمض عينيه على جسدى
أَرهف سمعى
أَشحذ عقلى
أَلمح نورًا
دقات القلب تنادى
ولدى
تتخللنى
تعمل فى نفسى آهة حزن من أيام تأتى يتركنى
تفتح عينيه الحانيتين أصابع خمس
وبروعة حس تقذفنى فى بؤرة قلبه
أبتِ..
الحلم الباقى من عهد الأحلام الوردية
مذ كنت صغيرًا
شهر أغسطس 1990